شرعة ومنهاج

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

٥٥

سنن النصر والتمكين (١)

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

سنن النصر والتمكين (١) [١] ١

- مفهوم سنن النصر ٢
- مصادر السنن الكونية والشرعية ٤
- الغايات والوسائل ٦
- أركان سن النصر ٨
- نصر الحق ونصر الذات ١٠
- النظرة المادية والنظرة الشرعية ١٢
- شهادة قتلى القصف والإبادات ١٤
- أنواع السنن الكوني ١٥

١) رابط الحلقة
https://www.youtube.com/watch?v=zScnZmlHM8Q

مفهوم سنن النصر

سيّر الله ﷻ الكون بنظام دقيق ليس له تخيير ومعادلات منها ما هو كوني ومنها ما هو شرعي ، وجعل الكون يسير وفق نظام دقيق جدًا لا يخرج عنه ولكن الخلل إنما يكون في البشر بدخول إرادته بحكمةٍ من الله ﷻ وإذنٍ منه ; وذلك أنه ﷻ قد جعل في بعض المخلوقات إرادة مثل البشر ومن الملائكة ومن خصهم بهذه الخصيصة أيضًا ، ونوع أخر من المخلوقات جعله الله ﷻ مسير ليس له تخيير وإنما يسير بإرادته فلما سار بإرادة الله ﷻ سار وفق النظام الدقيق كسير السحاب والأفلاك والمجرات وغيرها كسير الشمس والقمر ودوران الأرض بنظام دقيق لا تختلف ، لكن لما دخلت إرادة الإنسان لحكمة الله ﷻ وقع الاختلال فجعل الله ثمة أمر شرعي وهو الذي أمر الناس والمخلوقات أن يسيروا وفق أمره وجعل لهم لهم إرادة يستطيعون أن يخرجوا ب٦فعها عن أمر الله الشرعي وإن كان الكل داخل في نطاق إرادة الله الكونية ؛ فخرجت تصرفات البشر عن نظام الله ﷻ الذي لو ساروا عليه وفق ما أراد لصلحت البشرية ; لهذا يقول الله ﷻ ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور : ٦٣) يعنى خالفوا أمر الله ﷻ والذي لو ساروا عليه لساروا بانتظام كما تسير الكواكب بدقة دون خلل ولكن لما خالفوا أمر الله ﷻ وقع الاختلاف والفرقة وتأخرت النتائج .

ولهذا كثير من الناس يقعوا في شيء من العجلة في قراءة أرقام المعادلات ثم يسيروا ثم يرجعوا ثم يسيروا ثم يرجعوا وهكذا يصلوا بعد أيام ولكن لو أخذوا المعادلة بتريث ربما أخذت منهم ساعات فالنتيجة تأخرت من خلل في ذات الإنسان من جهة استعمال سنن الله ﷻ في الأرض ، لهذا بين الله ﷻ للبشر وسائل النصر والسبل وبين سننه الكونية في الأمم السابقة ليعتبروا بخلل الأمم السابقة وتأخر نصرهم وتعجيل نصر أمم أخرى وكثرة غلبت قلة وقلة أخرى خُذلت ،فثمة أمور متعددة ذكرها الله ﷻ ورسوله ﷺ في مواضع عديدة من أخباره وأقواله وأفعاله لمن أراد الوصول للنتائج التي يريدها الله ﷻ .

والإشكالية تكمن في جهل الإنسان بهذه السنن الكونية للنصر وإن عرف أغلبها فيختل النظام بمقدار الجهل ولو كان شيء يسير فربما يكون الإنسان قد حقق ما لديه من سنن الله ولم تتحقق النتائج والسبب في ذلك جهله في ذاته فتختل النتائج ; ولقد قص الله ﷻ في كتابه في مواضع عديدة آيات وعبر السابقين من نوح وإبراهيم ولوط وموسى وعيسي عليهم الصلاة والسلام ومن كان بينهم كزكريا ويحيى وسليمان وداود عليهم الصلاة والسلام وحالهم مع أممهم وكيف أدار الله ﷻ الأمور وكيف كانت النتائج وكيف كانت المخالفات والنتائج فمع بيان الأحكام الشرعية لرسوله ﷺ ذكر الله ﷻ القصص بأحوال الأمم السابقين إشارة لما نحن بصدده وهو ما يتعلق بالسنن الكوني والشرعي الذي لا يمكن أن تخرج عنه الأمم القادمة كما لم تخرج عنه الأمم السابقة ولهذا لا يضرب الله مثال ولا يبين حكم إلا ويريد به العبرة ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (آل عمران : ١٣) ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (الحشر : ٢) وهذه الآيات والعبر والقصص يريد الله ﷻ بها أن يكون الإنسان عليها لتتحقق له النتائج .

وربما يكون العالم صادق ولكن يتأخر له النصر بسبب قلة علمه فالعلم لديه ضيئل فلم يكن لديه علم واسع حتى تتحقق به النتيجة لهذا ربما يُؤتى الإنسان من صدقه فليس بصادقٍ فيكون كاذب ولو كان عالم فتختل به النتائج وربما يؤتى بجهله ولو كان صادق فتختل النتائج ; لهذا لابد من الجمع بين العلم والصدق لتتحقق النتيجة ; فإذا كان العالم لديه من العلم والمعرفة ما لديه ولكنه خائن في تطبيقها فستختل النتائج وإن أبدى للناس الصدق والنصح وهو مخالف في ذاته ، كما خالف أحبار بني إسرائيل ورهبانهم أمر الله وهم يعلمون ، فالعلم والصدق متلازمان فإذا وجد العلم دون الصدق اختلت النتائج فها هم بنو إسرائيل ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾(البقرة : ١٤٦) بين الله جلّاله أنهم يعرفون الكتاب كما يعرفون أبناءهم لكنهم فقدوا الصدق والتجرد ، ولهذا لابد من اجتماع هذين الركنين العلم والصدق لتحقيق سنن النصر في الأمم .

مصادر السنن الكونية والشرعية

أوجد الله جلّاله للإنسان العقل وأنزل عليه الشرع وهو الوحي في كتابه وسنة نبيه ﷺ التي تترجم فعله وقوله وتقريره ، فهذه من مصادر معرفة سنن الله فلم يكتفي الله بالأوامر الشرعية بل بين له ما يتعلق بالتأمل والتدبر وأمر بالسير في الأرض والتدبر في آيات كثيرة ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (آل عمران : ١٣) ، ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (الحشر : ٢) ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾(الأنعام: ١١) ، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ (الروم :٢٢)﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (البقرة :١٨٧) .

فما تلقاه مثيل هذا شريطة توفر تلك الأركان فالنتيجة واحدة ولكن الناس إما أن يخلوا بشيء من هذه الأركان فتختل معهم النتائج أو يظنوا أن الصور متشابهة فيطلبوا نتيجة متشابهة لشيء قد اختلفت أركانه ، لهذا مصادر معرفة سنن الله في النصر والتمكين تؤخذ من أمرين:

الأمر الأول : النظر في كون الله بالعقل ، والأمر الثاني : وهو الأصل بمعرفة الوحي لأن الله جلّ جلاله هو الذي خلق الكون والأسباب ما دق منا وما لطف فهو أعلم بما خلق ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الملك :١٤) فحينما يأمر الله بشيء ويخبرنا به ثمة نتيجة إن سلكت الطريق لابد أن تأتيك فإذا سلكت الطريق وصلت .

والناس ربما يستنكرون تارة إما لضعف بصرهم لمخالفة عقلهم بسبب جهلهم فالعالم يتكلم عن علم منسوب لله جلّ جلاله ، والله أحاط بكل شيء علما وعالم بكل شيء فيوجد تلك النتائج .

وعليه فإن أسباب النصر والتمكين يأخذها الإنسان من جهة عقله ونظره لهذا يأمر الله الإنسان بالتزود بالقوة والكر والفر والنظر والاعتبار والمخادعة في حروب المشركين وغير ذلك مما كان النبي ﷺ يسلكه وكذلك في تعامله مع الناس .

وكذلك الأمور الشرعية حتى لو خالفت عقل الإنسان من جهة النتائج ولهذا بشر الله جلّ جلاله نبيه ﷺ وهو في مكة بسقوط كسرى وقيصر وهو من جهة نظر كفار قريش أخذوه بالسخرية لقياسهم هذا الأمر بالعقل فالمكيون مستضعفون بالنسبة لفارس والروم فأهل المدينة من باب أولى فنظروا لتلك البشارة بشيء من السخرية والتهكم والاستهزاء .

فعلى الإنسان أن يسير وفق مراد الله ﷻ فإذا اختل اختلت النتائج بمقدار المخالفة يسيرة أم عظيمة وهذا يرجع فيه لمقدار الامتثال للعقل ومقدار الامتثال للنقل ، فالعقل ربما يكابر الإنسان يرى النتيجة ماثلة أمامه لكن لا يسير لها لقول عقله فيخالف حينئذٍ يجعل الله تلك النتيجة مختلة بسبب ذلك الاختلال من جهة العقل ، وكذلك من جهة النقل بمقدار الامتثال للنقل تكون النتيجة لصالح الإنسان .

ويجب أن يعلم الإنسان أنه لا ينتصر لنفسه وإنما ينتصر لدينه فعليه ألا ينتظر النصر لذاته فإن النصر يكون للحق وقد لا يدركه الإنسان لأن النصر للحق وليس للأفراد؛ كورقة بن نوفل لم يدرك النصر ومن الصحابة من أدرك شيء من النصر اليسير ولكنه لم يدرك النصر التام كحمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وكذلك خديجة عليها رضوان الله تعالى وهم من أفاضل الصحابة وربما يفضلون من جاء بعدهم فالإنسان ليس موعود بالنصر في ذاته وإنما النصر وعدٌ للرسالة ; والإنسان من ضمن الوسائل فربما ينتصر لذاته وربما يهزم في ذاته أو يبتلى أو يتحقق له شيء من التمكين .

الغايات والوسائل

سنن النصر تختلف باختلاف الغايات فتختلف معها الوسائل التي يسلكها الإنسان أو الجماعة بحسب الأمر الذي يسلكه وقد ذكرنا الركنين الأساسيين وهما الصدق والعلم فلابد منهما أن يكون الإنسان صادق في عمله فربما يكون صادق عن جهالة فيتخبط برغم أنه متجرد لكنه يطبق الجهل الذي لديه عن صدق فلا يجد نتيجة .

والصدق والتجرد والتمحص يكون بألا يستعمل العلم في دنياه ، وألا يعمل بالدين للدنيا فحينئذ يستعملها علما لكن في غير موضع كعلم الطب ومن يستعمل دواء الأنف للأذن هو علم لكنه في غير موضعه ولهذا بحسب حال الإنسان .

هل الإنسان صاحب دعوة ؟ هل هو صاحب أمر بمعروف ونهي عن المنكر ؟ هل هو صاحب جهاد ؟ فكل له طريق هل هو طالب علم ؟ فهذه وسائل شرعية كثيرة من طرق العمل والعبادة متنوعة جدًا ولكل شيء سبيل ولهذا النبي ﷺ يفوج بعض أصحابه لدعوة الناس ومنهم لجباية الزكاة ومنهم من يفوجه لسبيل الله وهذه وسائل من جهة التعدد تختلف أيضًا السنن للوصول إليها فتمكين الجهاد يختلف عن تمكين الأمر والنهي .

والسنن الشرعي فيمن يريد إقامة الخلافة تختلف عن السنن الشرعي لإقامة مسجد ، وسنن من يريد تعليم الناس وجباية الزكاة يختلف عن المجاهد في سبيل الله ؛ فإذا عرفت الغاية تعرف الطرق والسنن الشرعي له ؛ لهذا الإنسان إذا أراد أن يذهب للمدينة ولديه جهات متعددة يحدد الجهة التي يريد أن يسير إليها ثم ينظر للطرق لا ينظر في الطرق قبل الغاية ، فلابد من معرفة الغاية قبل الطريق ؛ لهذا النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل(إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ)[٢] فعرف الغاية ثم بيّن له النبي ﷺ السنن الذي يستعملها لتتحقق له النتيجة فبيّن له الوسائل قائلًا (فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ)[٣] .

٢) رواه البخاري المغازي (٤٣٤٧) ، مسلم الإيمان (١٩) ، الترمذي الزكاة (٦٢٥) ، النسائي الزكاة (٢٤٣٥) ، أبو داود الزكاة (١٥٨٤) ، ابن ماجه الزكاة (١٧٨٣) ، مسند أحمد (٢٣٣/١) ، سنن الدارمي الزكاة (١٦١٤) .

٣) نفس السابق .

فبين له النبي ﷺ أن يبدأ بدعوتهم للتوحيد ثم يتدرج وحينما يختل هذا الترتيب يقع الاختلال في النتيجة ; وهذه الوسائل ربما تخل بالنتيجة كأن تبدأ بالزكاة قبل الصلاة فيقع الخلل ; ولهذا جاء في الحلية عن عمر بن عبد العزيز (إنى أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة، فيدفعوه جملة)[٤] فهذه الوسائل لابد فيها من معرفة الغاية ونوع الغاية ثم يعرف السبيل لها فالذي يذهب لطلب العلم يختلف عن طالب التجارة والضرب في الأرض فلابد من معرفة الغايات قبل الوسائل ، فربما انتكس الإنسان في ذاته لعدم معرفته للغاية . لهذا معرفة هاتين الأمرين السنن الكوني والسنن الشرعي يكون بعد معرفة الغاية .

بعض الناس يظن أنه يكفيه الصدق والتجرد في ذاته وهذا من الخطأ ; بل لابد من العلم فبمقدار الاختلال في العلم والصدق تختل النتائج ، فربما تكون معذور وربما لا تكون معذور ، فهذه الأمور لابد من معرفتها ، ومعرفتها من الواجبات لتحقيق سنن النصر والتمكين .

أركان سنن النصر

ركني الصدق والعلم هما أركان سنن النصر والتمكين ، وبمقدار الاختلال فيهما يختل التعامل مع الوسائل لهذا كثير من الناس يكل الأمر لغيره وبطبيعة الإنسان يحب أن يضع اللوم على غيره ليبرئ نفسه ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران : ١٦٥) ، وقد قال الله جَلَّهُ في الصحابة ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾ (آل عمران : ١٥٢) .

٤) حكاها الشاطبي في كتابه الموافقات ١٤٨\٢ .

قَالَ عَبْدُ اللهِ بن مسعود (مَا كُنْتُ أَرَى أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُرِيدُ الدُّنْيَا حَتَّى نَزَلَ فِينَا يَوْمَ أُحُدٍ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ﴾)[٥] وهم الكمل الخلص فكيف بمن دونهم!.ولهذا لا تغر الأمة المظاهر والكثرة والقوة الظاهرة وكثرة العدد فلابد من الصدق والتجرد وهذا له أثر في الخلل الذي يوجد في النتيجة ، فالنصر ربما لا يُعدم لكن ينقص نسبيًا وكذلك الهزيمة ربما توجد نسبيًا ولكن لا تعدم كنصر النبي ﷺ في أحد وهو نوع من النصر تخلله شيء من عدم كمال النصر أو تخلله شيء من الضعف والسبب هو ما كان من أصحاب النبي ﷺ ; لهذا لابد من توفر العلم والصدق فيدع الإنسان الدنيا وحظ نفسه ويدع ما يريد أن يظهر فيه أمام الناس فربما يريد الإنسان أن تذكر بالخير ويحمد بالفراسة والقوة فربما يكون في قلب الإنسان دائرة ضيقة يعظمها الشيطان يريد أن يذكر عند أمه أو عند أبيه أو عند أخيه فمن الناس من هو شريحته ضيقة ومنهم من دائرته واسعة ومن الناس من لا يستحضر عند الموت إلا صديق له يريد أن يذكره بخير وهذا من القوادح .

ولهذا الشيطان يفتح على قلب الإنسان من ثقوب ما ينافي الإخلاص ما يفسد عليه بحسب مساحته التي ينشغل بها قلبه ولهذا من الناس من قلبه ليس به شيء من الدنيا كحال قلب الأم ; ولهذا وصف الله ﷻ قلب أم موسى بأنه فارغًا من كل شيء إلا من موسى عليه السلام فكادت أن تبدي به ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾ (القصص :١٠) فحينما ينشغل القلب بهذا الشيء يتكلم كذلك عندما يتعلق الفرد بالصديق بأمه بأبيه بماله بأهله بشيخه بجماهيره فربما يعمل لهم ولو كان في أقاصي الدنيا !. فلابد من تمحص الصدق وتوفر العلم .

٥) رواه أحمد في مسنده (٤٤١٤)، والطبراني في الأوسط (١٣٩٩)، ومسند ابن أبي شيبة (٤٣٠)، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط، وأحمد في حديث طويل .

نصر الحق ونصر الذات

الإنسان دائمًا ينفي عن نفسه الخلل يريد أن يلحقه بغيره وهذا موجود في النفوس البشرية والطبائع وقلما يخلص الإنسان من ذلك إلا الأصفياء والأتقياء ومن يتهم نفسه ويستغفر ويتوب ، ولهذا يقول الله جلاله ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران :١٤٧) فبدأ الله بذكر طلب المغفرة من الذنوب والإسراف في مخالفاته ثم طلب الثبات من الله جلاله وكأنه يكل النصرة لله ثم سأل النصر بعد توفر هذه الاشياء ، فلابد من الاستغفار والتجرد وتطهير القلب فربما لا يتحقق النصر إلا بعد تمحيص .

والإنسان في ذاته دائمًا يتبرأ ولابد من الاعتراف كما اعترف الصحابة وكذلك حث الصحابة على الإكثار من الاستغفار والتجرد مما يطهر القلب ويخفف عليه ولو كان عليه أحمال ثقيلة كأمثال الجبال بالاستغفار ولو بكلمات يسيرة تخفف هذه الأثقال .

لهذا ينبغي أن يكل الإنسان الأمر إلى نفسه من جهة التقصير لأنه إذا كان في الصحابة من يريد النيا فهو فيمن جاء بعدهم من باب أولى .

ينبغي أن يعلم الإنسان أن الله ينصر الحق وليس الأفراد ولهذا ربما سكثر القتل في الأمة لتتميز الصفوف ولهذا قتل فرعون من قوم موسى أمم كثيرة وما كان النصر إلا بعد ذلك فليعلم الإنسان أنه إن كان يأخذ بالسنن الكوني والشرعي فليعلم أنه بالطريق الصحيح فكل وسيلة منضبطة يتأخر معها النتيجة يعلم أنه في الطريق الصحيح ولهذا يقول الله جلاله ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ (يوسف :

١١٠) واليأس الذي يلحق لابد معه الصبر ؛ يقول الله جلَّ ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ﴾ (الأنعام : ٣٤) فالنصر يأتي بعد التكذيب والصبر فلابد أن يعلم الإنسان أن وجود الضعف والقتل أمارة على النصر شريطة أن يكون سلك سنن الله الصحيحة لا أن يكون مختل النظر فيعمي بصره عن السنن الكوني والشرعي فتختل لديه النتائج فيقول هذه النتائج التي أخبر الله بها فلنصبر ولو تأخر النصر ولا يقول نراجع السنن !!.

ولابد في النصر من التفريق بين أمرين :

١) نصر الذات وهذا لا يكون إلا للنبي ﷺ .

٢) نصر الحق وهو لا يتحقق للأفراد بمعنى أنه قد يقتل فرد أو جماعة أو أمة ولا يأتي النصر إلا بعد ذلك .

لأن الحق هو الموعود بالنصر وليس الأفراد ، لهذا منهم من يموت في أول الطريق ومنهم من يموت في وسط الطريق ومنهم من يدرك آخره ومن الناس من يدرك النصر فيما بعد ولم يكن في عهد المدافعة وهؤلاء الذين يقطفون الثمرة ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ﴾ (التوبة : ٤٠) فالنصر لابد أن يكون مع هذا الرجل وهو رسول الله ﷺ فلابد أن يقطف ثمرته في ذاته فهذا وعد لرسول الله ﷺ وإنما غيره لا يوعدون بالنصر إنما أمة الإسلام هي من توعد بالنصر لا الأفراد والخلل الموجود عند الناس أن كثير من حملة الحق يجعلون أنفسهم في مقام الرسول ﷺ فيشكك في طريقه بعد ستين عام أو بعد سبعين عام ؛ يقول متى النصر ؟ نقول الوعد لنصرة الحق ليس لنصرة الذات والأفراد فربما يتحقق النصر في عهد أبنائك او عهد أحفادك أو من جاء بعدهم .

ومن الأمور الخطيرة في تأخير النصر أمران :

الأمر الأول : العجلة بأن يظن الإنسان أن العمر يتسارع به وقد مضى عليه سنوات ولم يتحقق له النصر ويريد أن يسابق الزمن ليحقق النصر ، نقول له لم يعدك الله تعالى في ذاتك وإنما وعد الحق بالنصر ربما بك أو بغيرك فلا تستعجل فربما في العجلة هلاكك .

الأمر الثاني : التنازل عن أصل من أصول الإسلام كإسقاط الشريعة أو جزء منها استعجالاً للنصر وهذا لا يكون معه نصر بل خذلان وذل ; يقول الله تعالى ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾(البقرة : ٨٥) يعني الذي يسقط الشريعة أو يكفر بالله أو يستعجل النصر يريد أن يرى النصر في ذاته فلا يجعل الله عاقبته نصرًا بل خذلانًا وذلًا فالنصر لا يكون إلا بالتنازل عما أذنت الشريعة بالتنازل عنه ما لم يمس الأصول الكبرى للإسلام .

النظرة المادية والنظرة الشرعية

الخلل إنما يقع بسبب أصل النظرة ، فثمة أناس ينظرون نظرة مادية محضة للنصر كاستتباب الأكل والشرب والأمن في السرب والمأوى فهذا هو النصر !. وهذه نظرة حيوانية من جهة الأصل يشترك فيها مع الإنسان حتى البهائم في مأكلها ومشربها ومأواها وهو السلامة المطلوبة ، لكن من جهة الإنسان له خصيصة من جهة الحق وهو الذي يضحي بمأكله ومشربه وملبسه وربما أرضه ومسكنه ليتحقق النصر ، فقد هاجر النبي ﷺ وتخلى عن وطنه مكة أحب البقاع إليه خرج منها لرسالته التي يريد أن يمكن لها وقاتل الأقربين له من كفار

قريش وتخلى ﷺ عن ماله الذي كان في مكة فلا ولاء لبلده ولا ولاء لجماعته ولا لماله واستمتاعه فخرج من ذاك كله بتلك الرسالة التي بين جنبيه عليه الصلاة والسلام ؛ فالنصر والتحقق فيه يختلف عن النظرة المادية عن النظرة الشرعية الصحيحة لهذا الماديون نظرتهم هي المكاسب بالأرقام ولهذا المنافقون يأمرهم النبي ﷺ بالخروج فيرجعون لمقاييس مادية ﴿ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ (التوبة : ٨١) فثمة أمر غيبي لا يؤمنون به يقولون ﴿ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا ﴾ (آل عمران : ١٥٦) فالله جعل النظرة المادية نظرة المنافقين لا نظرة المؤمنين .

والمؤمن لا يهمل الجوانب المادية ولكنها نظرة ثانوية بالنسبة له ليست النظرة الأولية بمعنى أنها إذا كانت الأمة تُباد وتُهلك وتُستأصل شأفتها في إقدام لأمر من الأمور لأمر النبي ﷺ بتأخيره ولهذا النبي ﷺ أخَّر كثير من الأمور وهي حق لعدم مناسبتها .

لهذا تؤخذ النظرة المادية بالاعتبار لكنها نظرة ثانوية تؤثر في مسير الأمر وفي العجلة وفي التريس وفي الإقدام والإحجام وغير ذلك فلها موضع اعتبار ، وحينما يجعل الإنسان النظرة المادية هي رقم واحد ولا يجعل للنظرة الشرعية أي اعتبار حينئذ يكون التصادم في معرفة الوسائل وتحقق النتائج .

المنافقون يقولون نحن معك يا ﷺ ثم يقيسون الآخرة بالدنيا وإن كان منهم من لا يعتد بالنظرة الشرعية بالكلية وهذا بحسب ضعف الإيمان وقوته فتقوى شعب النفاق وتضعف.

لهذا جعل الله تعالى مع كون القتل عظيم وتوعد للقاتل بوعيد لم يكتب جنسه عددا في موضع واحد كما جعله في القتل ؛ جعل القتل في سبيل الله شهادة ورفعة عنده فلما كانت الغاية الشرعية فأصبح الخطر المادي قربة لله .

وكذلك من جهة الجوانب المادية قد يقول الإنسان أأنفق مالي لدعم الفقراء والمساكين وإطعام الايتام والأرامل ، ما هي الفائدة من أن أنقص مالي ؟ هذه نظرة مادية محضة ، ولهذا أخبر الله أن النفوس شحيحة بكل ما تملك تحب أن تزداد ﴿ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ ﴾ (النساء : ١٢٨) تمكَّن منها تمكُّن شديد وقد جاء الله تعالى بأوامر تختبر الإنسان هل أنت تحب الله فتقدمه على محبوباتك ، ولهذا تجد من الناس من يموت ولديه مئات المليارات ولو أكل منها ولبس جديد ولم يلبس غسيلًا لم ينتهي ماله ، فلمن فيجمعه ؟ ومنهم من ليس له ولد ولا ذرية أو عقيم ؟ فهذا الاستكثار والنهم والشح موجود في الإنسان ، ولهذا النظرة المادية غير معتبرة في تمكن الإنسان ولكنها معتبرة بعد النظرة الشرعية من جهة التقديم والتأخير في الإرجاء فيرجئ عمل لا يلغيه كحال الجهاد في سبيل الله أو الإنفاق أو إعانة المكلومين فهذا بحسب الإنسان يسوسها من جهة القلة والكثرة والإقدام والإحجام فالنظرة المادية لا تُلغى ولكنها تزن الأمور وتقدم وتأخر .

شهادة قتلى القصف والإبادات

إذا قتل العدو مسلمًا ولو كان في بيته فهو شهيد ، كحال القصف العشوائي ونحو ذلك والإبادات الجماعية بالأسلحة البيلوجية الفتاكة والكميائية ونحو ذلك ولو كانوا شيوخًا نساءً رجالًا أطفالًا أو لم يخطر في بالهم أو ربما كانوا نائمين وهذا من لطف الله بهم فربما يهدم البيت على صاحبه وهو نائم فيموت ولم يكن استحضار نية .

ولهذا النبي ﷺ يقول (الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سِوَى الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . الْمَطْعُونُ شَهِيدٌ . وَالْغَرِقُ شَهِيدٌ . وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ . وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ . وَصَاحِبُ الْحَرِيقِ شَهِيدٌ . وَالَّذِي يَمُوتُ تَحْتَ الْهَدْمِ شَهِيدٌ . وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدٌ)[٦] فهذه رحمة من الله ولطف بعباده يعطيها الله جلاله أولئك؛ لكن لا يسعى الإنسان ليتسبب في هذه الأشياء كأن يلقي بنفسه في التهلكة ، أو يتخير مبنى مُتهالك يجلس فيه أو يركب البحر ولا يعرف السباحة حتى يسقط! لكن هذه الأشياء ترجع لقدر الله وأما بالنسبة للإقدام فعلى الإنسان أن يقدم لحمل الراية ودفع الظلم وتمكين الحق وحكم الله وإن مات في ذلك فهو شهيد فيتحقق في هذا الأمران نصر الدين والشهادة .

أنواع السنن الكوني

تتنوع سنن الله الكونية في الأرض ولعل من أبرزها ثلاثة أنواع :

النوع الأول : العدل .. فلا يُمكّن الله تعالى لظالم ولو أوجد الله له تمكين فهو تمكين مع ذل وصغار ، ولهذا أمر الله تعالى بالعدل وهذا مقتضى ربوبية الله ولهذا يمكن الله للعادل ولو كان كافر ولا يمكن لمسلم إذا كان ظالم يفسد في الأرض ويسلب الناس حقوقهم فهذا مسلم ظالم وأمره في الأخرة لله فربما ينجيه من عذابه ويدخله الجنة .

وأما الكافر العادل كالنجاشي قبل دخوله للإسلام قال عنه ﷺ (لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد)[٧] إشارة إلى أنه صاحب عدل واشتهر عدله فلابد من إقامة العدل في الأمة حتى يتحقق النصر والتمكين ولا يقول الإنسان أنا على التوحيد

٦ (رواه أبو داود (٣١١١) والنسائي (١٨٤٦)
٧ (رواه البيهقي: كتاب السير، باب الإذن بالسير (١٨١٩٠)، وابن هشام: السيرة النبوية ٣٢٢/١، ٣٢٣ .

وعلى الإسلام فيظن أن عدله في حق الله وأنه سيُمكّن له في الأرض ولهذا جعل الله للمظلوم دعوة وحقوق الناس لها عاقبة لهذا بيّن النبي ﷺ أن دعوته مستجابة وله حق يأخذه ولو بعد حين ولو كان كافرًا ، لهذا جاء في المسند عن النبي ﷺ (اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمُظْلُومِ ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهُ حِجَابٌ)[٨] ، كما جاء عنه ﷺ (ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حين يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها فوق الغمام ، وتفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب –عز وجل–: وعزتي لأنصرنَّكِ ولو بعد حين)[٩] هذا وعد من الله لابد أن يتحقق فإذا كثر المظلومون فدعو على الظالم ولو كان مسلمًا شتت الله أمره وشتت ملكه واستذله واستصغره لهذا العدل في الجند والجماعات من سنن النصر ، وهذا مقتضى ربوبية الله فالله سبحانه وصف نفسه بأنه خير الرازقين ; لهذا نجد الكفار يتمتعون ويأكلون ويشربون بل إن الله تعالى يُطعم الخنزير مع أنه أمر بقتله وحرم أكله ويطعم الكلب مع أن الإنسان إذا اقتناه لا تدخل الملائكة بيته فالله جلّ يرزق عباده بمقتضى الربوبية فهو خالقهم ورازقهم لهذا نجد كافر غني ومسلم غني كافر فقير ومسلم فقير فهذه معادلات كونية ، فأمر الله بالتوحيد والعبادة والصلاة والصيام وفي الجانب الأخر أمر بالعدل والإنصاف وبر الوالدين وصلة الرحم وعدم التعدي على الجار وحسن الخلق وهذا فيما يتعلق بحقوق الناس حتى يكون التمكين ويطول الأمد وتستمر الأمم ولهذا يقول الله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمْ﴾(النور : ٥) فلم يوعد الذين أمنوا فقط بل الذين عملوا الصالحات لهذا من أعظم ما يتعلق بالسنن الكوني هو العدل في الأرض الذي أمر الله به .

٨) رواه أحمد (١٥٣/٣)، والشهاب في "المسند" (٩٧/٢)، والضياء في "المختارة" (٢٩٣/٧)، والهيثمي في "مجمع الزوائد" (١٥٢/١٠).
٩) رواه (الترمذي ٥٨٠/٤) كتاب صفة الجنة، باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها ح(٢٥٢٦) .

النوع الثاني من أنواع السنن الكوني: الماديات والأخذ بالأسباب فكما أمر الشارع الحكيم بالتخفف من الذنوب أمر بالاعتبار بالأمور المادية وذلك أن الإنسان لا يمكن أن ينتصر وهو قاعد في بيته لهذا يقول الله تعالى ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (الأنفال : ٦٠) فإذا ضعف الإمكانيات يكملها الله تعالى ولهذا مع قلة عدد الصحابة مع النبي ﷺ عوضهم الله جلاله نصرًا بالملائكة وجندًا معهم وجعل النصر منه سبحانه ، وربما يقصر الناس في العدة والجوانب المادية فيختل لديهم فلا ينصروا فلابد من الإعداد قدر الاستطاعة لأن الاختلال في الماديات مخالفة لأمر الله تعالى ، وقد جاء عن النبي ﷺ (ألا إن القوة الرمي)[١٠] وأمر بالقوة والرمي وتعلمه وعدم نسيانه ، كما جاء عن عقبة بن عامر أن رسول الله قال: (من علم الرمي ثم تركه فليس منا، أو قد عصى)[١١] ولهذا الاعتبار بالماديات من الأمور المهمة فإذا ضعف الإنسان وجاء بما يستطيع من قوة مده الله جلاله بالمدد من عنده كما مُدّ النبي ﷺ بالملائكة والجنود وبأمور أخرى منها أمور نفسية من الأخبار والأنباء فقد قلّل الله المشركين في أعين النبي ﷺ وكثرهم في أعين المشركين حتى تحققت المعادلة ; لهذا إذا أعدت الأمة ما استطاعت عوض الله نقصهم بشيء من الإعجاز منه سبحانه .وقد جاء في الحديث من حديث عكرمة عن عبدالله بن عباس عن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ نظر إلى أصحابه فإذا عددهم ثلاثمائة وعدد المشركين بالآلاف فرفع يديه إلى السماء واجتهد في الدعاء وأطال قال ﷺ (اللَّهُمَّ إني أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ اللَّهُمَّ إنْ شِئْتَ لَمْ تُعْبَدْ بَعْدَ اليَوْمِ)[١٢] فاستفرغ النبي ﷺ وسعه وعوضه الله تعالى بالدعاء فاستنزل من الله النصر والقوة والتمكين .

---

[١٠]) رواه مسلم ح (٥٠٥٥) من طريق عمرو بن الحارث .
[١١]) رواه مسلم ح (١٩١٩) .
[١٢]) رواه البخاري ح(٢٩١٥) .

النوع الثالث من أنواع السنن الكوني للنصر والتمكين: النظر إلى حقيقة الأعداء

فالكفار يختلفون عن المنافقين وثمة مشركون وثمة يهود ونصارى وأي اختلال يسلكه الإنسان يؤديه إلى غيره فستكون النتيجة مختلفة فلابد من معرفة مراتب الأعداء من جهة الخطورة ومن جهة قربهم وبعدهم فمعاداة الكل على نفس المرتبة من الخلل في السنن الكوني ، لهذا تجد أعداء النبي ﷺ في المدينة كانوا ثلاثة : كفار قريش وهم في مكة ، والعدو الثاني اليهود مجاورون مخالطون في المدينة ، والعدو الثالث منافقون .. وثمة أعداء أبعدون وهم فارس والروم فنجد أن النبي ﷺ لم يكاتب أحد من الملوك الأبعدين بالتهديد أو القتل أو الوعيد وإنما قام بإضعاف الأقربين فلم يكاتب فارس ولا الروم إلا بعد إضعاف الأقربين ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (التحريم:٩) ، وأمن اليهود بإخراجهم وقتل فيهم من قتل ، ثم صالح كفار قريش عشر سنين ثم كاتب العدو الخارجي .

والذي ينظر لمعاداة الكل على نفس المرتبة فهذا من الخلل في السنن الكوني يستعدي به الأعداء ؛ لهذا النبي ﷺ لو جاء لمدينة ولم يقم فيها بما قام لربما تكاتفت فارس مع الروم وتكاتف الروم مع ملك مصر ودومة الجندل وتكاتفوا مع كفار قريش ومع اليهود واستباحوا حينئذٍ بيضة المسلمين ؛ فمعاداة كل الأعداء في آنٍ واحد من الخلل في سنن النصر والتمكين فلابد من الأخذ بهذا الاعتبار حتى يصل الإنسان للنصر والتمكين في الأرض الذي وعده الله تعالى للحق .